بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة سبحان

وهى مكية

روى الإمام البخارى عن ابن مسعود، رضى الله عنه، قال فى بنى إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول وهن من تلادى (١).

وروى الإمام أحمد عن أبى لبابة، سمعت عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة «بنى إسرائيل»، و«الزمر»(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ الجزء ١٥
لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)﴾

يمجد تعالى نفسه، ويعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره ولا رب سواه ﴿الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ يعنى محمدا ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ أى فى جنح الليل ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ وهو بيت المقدس الذى بإيلياء، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل؛ ولهذا جمعوا له هناك كلهم، فأمّهم فى مَحِلّتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أى: فى الزروع والثمار ﴿لِنُرِيَهُ﴾ أى: محمداً ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ أى: العظام كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم:١٨]. وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه، صلوات الله عليه وسلامه. وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أى: السميع لأقوال عباده، مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم فيعطى كلاً منهم ما يستحقه فى الدنيا والآخرة.

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التى يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت. فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن. فقال جبريل: أصبت الفطرة» قال: «ثم عرج بى إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ [قال: قد أرسل إليه] (٣)، ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بى ودعا لى بخير. ثم عَرَج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل. قيل:

(١) البخارى (٤٧٠٨).
(٢) المسند (٦ / ١٨٩)، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه (١١٦٣).
(٣) ساقطة من المخطوطة، وأثبتناها من المطبوعة والمسند.

ومن معك ؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى، فرحبا بى ودعوا لى بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه ؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن، فرحب بى ودعا لى بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت ؟ قال:جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد. فقيل :وقد أرسل إليه ؟ قال: بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحب بى ودعا لى بخير. ثم يقول الله :﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم:٥٧]. ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك ؟ قال: محمد. فقيل:وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بهارون، فرحب بى ودعا لى بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه ؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى فرحب بى ودعا لى بخير.ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام ، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه.

ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقِلال. فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله، تعالى، يستطيع أن يصفها من حسنها. قال: «فأوحى الله إلىّ ما أوحى، وفرض علىّ فى كل يوم وليلة خمسين صلاة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى. قال: ما فرض ربك على أمّتك ؟ » قال : «قلت: خمسين صلاة فى كل يوم وليلة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك؛ فإن أمّتك لا تطيق ذلك، وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم». قال: «فرجعت إلى ربى، فقلت: أى رب، خفف عن أمّتى، فحطّ عنى خمساً.فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال: ما فعلت؟ فقلت: قد حطّ عنى خمساً. قال: إن أمّتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك» قال: « فلم أزل أرجع بين ربى وبين موسى، ويحطّ عنى خمساً خمساً حتى قال: يامحمد، هى خمس صلوات فى كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت حسنة، فإن عملها كتبت عشراً. ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب، فإن عملها كتبت سيئة واحدة . فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك، فإنّ أمّتك لا تطيق ذلك». فقال رسول الله ﷺ : «لقد رجعت إلى ربى حتى استحييت». ورواه مسلم، وهو أصح من سياق شَريك [(١)]. قال البيهقي: وفى هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به، عليه الصلاة والسلام، من مكة إلى بيت المقدس. وهذا الذى قاله هو الحق الذى لاشك فيه ولا مرية.

وروى الإمام أحمد عن أنس، أن النبى ﷺ أتى بالبراق ليلة أسرى به مُسْرَجاً ملجماً ليركبه، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ فوالله ما ركبك قط أكرم علي الله منه . قال:

(١) المسند (٣ / ١٤٨) ومسلم (١٦٢ / ٢٥٩) ورواية أنس عن شريك إنما هى فى البخارى برقم (٧٥١٧) .

فارفضّ عرقاً. ورواه الترمذى وقال: غريب لانعرفه إلا من حديثه [(١)]

رواية أنس بن مالك عن مالك بن صَعْصَعَة:

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك: أن مالك بن صعصعة حدثه: أن نبى اللَّه ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به، قال: «بينما أنا فى الحطيم ـ وربما قال قتادة: فى الحجر ـ مضطجعاً إذ أتانى آت» فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة، قال: «فأتانى فقدّ ـ وسمعت قتادة يقول: فشق ـ مابين هذه إلى هذه». وقال قتادة: فقلت للجارود وهو إلى جنبى: ما يعنى؟ قال: من ثغرة نحره إلى شِعْرته، وقد سمعته يقول: من قَصّته إلى شِعْرَته قال: «فاستخرج قلبى» قال: «فأتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة فغسل قلبى ثم حشى، ثم أعيد. ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض». قال: فقال الجارود: وهو البراق يا أبا حمزة؟ قال: نعم، يقع خطوه عند أقصى طرفه. قال: «فحملت عليه، فانطلق بى جبريل، عليه السلام، حتى أتى بى إلى السماء الدنيا، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. فقيل: مرحباً به، ولنعم المجىء جاء». قال: «ففتح فلما خلصت، فإذا فيها آدم، عليه السلام، فقال: هذا أبوك آدم، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟ فقال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجىء جاء»، قال: «ففتح لنا، فلما خلصت، فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة. قال: هذا يحيى وعيسى، فسلم عليهما». قال: «فسلمت فردا السلام ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجىء جاء». قال: «ففتح لنا فلما خلصت، فإذا يوسف، عليه السلام، قال: هذا يوسف» قال: فسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المجىء جاء». قال: «ففتح لنا، فلما خلصت فإذا إدريس عليه السلام، قال: هذا إدريس فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه. فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح». قال: «ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجىء جاء. ففتح لنا، فلما خلصت، فإذا هارون، عليه السلام، قال: هذا هارون فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ والنبى الصالح».

قال: «ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجىء جاء. ففتح لنا، فلما خلصت، فإذا أنا بموسى عليه السلام، قال: هذا موسى، عليه السلام، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح». قال: «فلما تجاوزته بكى. قيل له:

(١) المسند (٣ / ١٦٤) والترمذى (٣١٣١) وقال: «حسن غريب».

مايبكيك؟ قال: أبكى لأن غلاماً بعث بعدى، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى». قال:«ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد بعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح لنا، فلما خلصت، فإذا إبراهيم، عليه السلام، فقال: هذا إبراهيم، فسلم عليه». قال:«فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح». قال: «ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قِلال هَجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سدرة المنتهى». قال: «وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ماهذا ياجبريل؟ قال :أما الباطنان فنهران فى الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات». قال:ثم رفع إلى البيت المعمور. قال قتادة: وحدثنا الحسن، عن أبى هريرة، عن النبىﷺ أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفا لا يعودون فيه. ثم رجع إلى حديث أنس قال: « ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل». قال:«فأخذت اللبن ،قال : هذه الفطرة أنت عليها وأمتك». قال: «ثم فرضت عليَّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم». قال:«فنزلت حتى أتيت موسى، فقال:ما فرض ربك على أمتك ؟ »قال:«فقلت:خمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة، وإنى قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ». قال: «فرجعت فوضع عنى عشراً أخر، قال: فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت ؟ فقلت: بأربعين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فوضع عنى عشراً أخر. فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بثلاثين صلاة. قال: إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال:«فرجعت فوضع عنى عشراً أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت ؟ قلت: بعشرين صلاة كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع العشرين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال:«فرجعت فوضع عنى عشراً أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات فى كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع العشر صلوات كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع الخمس صلوات كل يوم وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال:«قلت: قد سألت ربى حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم. فنفذت ،فنادانى مناد: قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى ». وأخرجاه فى الصحيحين ، بنحوه[١] .

رواية أنس عن أبى ذر:

روى البخارى عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول اللّهﷺ قال: «فرج سقف

(١) المسند (٤ / ٢٠٨) ، والبخارى (٣٣٩٣) ومسلم (١٦٣ / ٢٦٣) .

بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه. ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا ، فلما جئت إلى السماء، قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد ﷺ. قال: أرسل إليه ؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا وإذا رجل قاعد على يمينه أَسْوِدَة وعلى يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قال : قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم. وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نَسَم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى. ثم عرج بي إلى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال له الأول، ففتح». قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم ،ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة. قال أنس: فلما مرّ جبريل بالنبي ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ قال: هذا إدريس. ثم مررت بموسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا موسى . ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: عيسى ابن مريم. ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم». قال الزهري: فأخبرني ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حبّة الأنصاري كانا يقولان: قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام». قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: « ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى عليه السلام، فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها. فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك . فرجعت فوضع شطرها. فرجعت إليه فقال: [ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعته] فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لديّ. فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك. قلت: قد استحييت من ربي. ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جبال اللؤلؤ وإذا ترابها المسك». هذا لفظ البخاري في «كتاب الصلاة» (١).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن شَقِيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. قال: وماكنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه؟ فقال: إني قد سألته فقال : «إني قد رأيته نوراً أنى أراه ».هكذا قد وقع في رواية الإمام أحمد. وأخرجه مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: « نور أنى أراه » (٢).

وعن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: « رأيت نوراً» (٣).

---

(١) البخاري (٣٤٩) وما بين المعقوفين منه . (٢) المسند (٥ / ١٤٧) ومسلم (١٧٨ / ٢٩١) .
(٣) المسند (٥ / ١٤٧) ومسلم (١٧٨ / ٢٩٢) .

روایة أنس عن أبی بن كعب الأنصاری:

روی عبد اللّٰه بن الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: كان أبی بن كعب يحدث: أن رسول اللّٰه ﷺ قال: « فرج سقف بيتى وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدرى، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغها فى صدرى ثم أطبقه، ثم أخذ بيدى فعرج بى إلى السماء. فلما جاء السماء الدنيا إذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه تبسم، وإذا نظر قبل يساره بكى قال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح». قال: «قلت لجبريل: من هذا ؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه، فأهل اليمين هم أهل الجنة، والأسودة التى عن شماله هم أهل النار. فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى». قال: «ثم عرج بى جبريل حتى أتى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح له». قال أنس: فذكر أنه وجد فى السموات: آدم، وإدريس، وموسى، وإبراهيم ، وعيسى، ولم يثبت لى كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم، عليه السلام، فى السماء الدنيا، وإبراهيم فى السماء السادسة. قال أنس: فلما مرّ جبريل عليه السلام، ورسول اللّٰه ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبى الصالح والأخ والصالح». قال: «قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا إدريس»، قال: «ثم مررت بموسى، فقال: مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟. قال: هذا عيسى ابن مريم» قال: «ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم». قال ابن شهاب: وأخبرنى ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حبة الأنصارى كانا يقولان: قال رسول اللّٰه ﷺ : «ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع صريف الأقلام» قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول اللّٰه ﷺ : «فرض اللّٰه على أمتى خمسين صلاة» قال: «فرجعت بذلك حتى أمر على موسى، فقال موسى: ماذا فرض ربك على أمتك؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة. فقال لى موسى: راجع ربك؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك» قال: «فراجعت ربى. فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فقال: هى خمس وهى خمسون، لا يبدل القول لدى». قال: «فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت: قد استحييت من ربى» قال: «ثم انطلق بى حتى أتى سدرة المنتهى». قال: «فغشيها ألوان ما أدرى ماهى؟» قال : «ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك». هكذا رواه عبد اللّٰه بن أحمد فى مسند أبيه وليس هو فى شىء من الكتب الستة، وقد تقدم فى الصحيحين عن أبى ذر، مثل هذا السياق سواء، فاللّٰه أعلم (١).

روایة جابر بن عبد اللّٰه، رضى اللّٰه عنه :

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد اللّٰه : أنه سمع رسول اللّٰه ﷺ يقول: «لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس، قمت فى الحجر فَجَلَّى اللّٰه لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه». أخرجاه فى الصحيحين (٢) .

---

(١) المسند (٥ / ١٤٣ ، ١٤٤) .

(٢) المسند (٣ / ٣٧٧) والبخارى (٤٧١٠) ومسلم (١٧٠ / ٢٧٦) .

رواية عبد الله بن عباس:

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: ليلة أسرى بنبى الله ﷺ دخل الجنة، فسمع فى جانبها وَجْساً (١) فقال: «يا جبريل، ما هذا؟» قال: «هذا بلال المؤذن». فقال النبى ﷺ حين جاء إلى الناس: «قد أفلح بلال، قد رأيت له كذا وكذا». قال: فلقيه موسى، عليه السلام، فرحب به، وقال: «مرحباً بالنبى الأمى»، قال: «وهو رجل آدم طويل، سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما، فقال: «من هذا ياجبريل ؟» قال: «هذا موسى. فمضى فلقيه شيخ جليل متهيب فرحب به وسلم عليه وكلهم يسلم عليه، قال: «من هذا ياجبريل؟». قال: «هذا أبوك إبراهيم»، قال: ونظر فى النار، فإذا قوم يأكلون الجيف، قال: «من هؤلاء ياجبريل؟» قال: «هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس»، ورأى رجلاً أحمر أزرق جداً، قال: «من هذا ياجبريل؟». قال: «هذا عاقر الناقة»، قال: فلما أتى رسول الله ﷺ المسجد الأقصى قام يصلى، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه. فلما انصرف جيء بقدحين، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، فى أحدهما لبن وفى الآخر عسل، فأخذ اللبن فشرب منه، فقال الذى كان معه القدح: أصبت الفطرة . إسناد صحيح ولم يخرجوه (٢).

طريق أخرى :روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: أسرى برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبعيرهم، فقال ناس: نحن لا نصدق محمداً بما يقول! فارتدوا كفاراً، فضرب الله رقابهم مع أبى جهل ، وقال أبو جهل: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمرا وزبدا فتزقموا، ورأى الدجال فى صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام، وعيسى وموسى وإبراهيم .وسئل النبى ﷺ عن الدجال فقال: «رأيته فيلمانياً أقمر هجان، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب درى، كأن شعر رأسه أغصان شجرة. ورأيت عيسى عليه السلام أبيض، جعد الرأس، حديد البصر ، مبطن الخلق . ورأيت موسى عليه السلام أسحم آدم، كثير الشعر، شديد الخلق. ونظرت إلى إبراهيم عليه السلام فلم أنظر إلى ارب منه إلا نظرت إليه منى، حتى كأنه صاحبكم. قال جبريل: سلم على مالك (٣)فسلمت عليه». ورواه النسائى وإسناده صحيح (٤).

طريق أخرى: روى البيهقى عن أبى العالية قال: حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بى موسى بن عمران، رجلاً طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس». وأرى مالكاً خازن جهنم والدجال، فى آيات أراهن الله إياه، قال: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ [السجدة: ٢٣] فكان قتادة يفسرها: أن نبى الله ﷺ قد لقي موسى عليه السلام ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال: جعل الله موسى هدى لبنى إسرائيل. وأخرجاه (٥).

طريق أخرى: وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسرى

---

(١)فى المطبوعة والمخطوطة الأزهرية : «وخشا» والمثبت من المسند .
(٢)المسند (٢٣٢٣) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» .
(٣)فى المطبوعة : «أبيك» والمثبت من المخطوطة والمسند .
(٤)المسند (٣٥٤٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» والنسائى فى الكبرى (١١٤٨٤) .
(٥)البيهقى فى الدلائل (٢ / ٣٨٦) والبخارى (٣٢٣٩) ومسلم (١٦٥ / ٢٦٦) .

بي»، فأصبحت بمكة، فظعت وعرفت أن الناس مكذبي، فقعدت معتزلاً حزيناً، فمرّ به أبو جهل فجاء حتى جلس إليه، فقال كالمستهزئ: هل كان من شيء ؟ فقال رسول الله ﷺ : «نعم» قال: وماهو؟ قال: «إني أسرى بي الليلة» قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! قال: «نعم». قال: فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه إليه ، فقال: أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ : «نعم». فقال: يا معشر بني كعب بن لؤي، قال: فانتفضت إليه المجالس وجاؤوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدث قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ : « إني أسرى بي الليلة». فقالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: « نعم». قال: فمن بين مصفق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب ،قالوا: وتستطيع أن تنعت لنا المسجد وفيهم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد ؟ فقال رسول الله ﷺ : « فما زلت أنعت حتى التبس عليّ بعض النعت» قال:« فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه، حتى وضع دون دار عقيل ـ أو عقال ـ فنعّته وأنا أنظر إليه». قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه ،قال:فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه .وأخرجه النسائي ورواه البيهقي [١] .

رواية عبد الله بن مسعود:

روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عبد الله بن مسعود قال: لما أسرى برسول الله ﷺ ، فانتهى إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يصعد به حتى يقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها حتى يقبض ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم:١٦] قال: غشيها فراش من ذهب، وأعطى رسول الله ﷺ الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئا المقحمات ،يعني الكبائر. ورواه مسلم [٢] . ثم قال البيهقي:« وهذا الذي ذكره عبد الله بن مسعود طرف من حديث المعراج ، وقد رواه أنس بن مالك، عن مالك بن صَعْصَعَة، عن النبي ﷺ ، ثم عن أبي ذر، عن النبي ﷺ ، ثم رواه مرة مرسلاً دون ذكرهما» [٣] ،ثم إن البيهقي ساق الأحاديث الثلاثة كما تقدّم . والمشهور في الصحاح كما تقدم: أن جبريل كان يعلمه بهم أولاً ليسلم عليهم سلام معرفة. وفيه أنه اجتمع بالأنبياء عليهم السلام قبل دخوله المسجد الأقصى، والصحيح أنه إنما اجتمع بهم في السموات، ثم نزل إلى بيت المقدس ثانياً وهم معه، وصلى بهم فيه، ثم إنه ركب البراق وكر راجعاً إلى مكة، والله أعلم .

طريق أخرى : روى الإمام أحمد عن مؤثر بن عفازة، عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فتذاكروا أمر الساعة» قال:« فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام فقال: لا علم لي بها. فردوا أمرهم إلى موسى. فقال: لا علم لي بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى فقال: ما أوحيتها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل، وفيما عهد إلى ربي أن الدجال خارج». قال:« ومعي قضيبان، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص». قال:« فيهلكه الله إذا رآني، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتي كافراً، فتعال فاقتله». قال:« فيهلكهم الله،

(١) المسند (٢٨٢٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، والنسائي في الكبرى (١١٢٥٨) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٢ / ٣٦٣) .

(٢) دلائل النبوة (٢ / ٣٧٢) ومسلم (١٧٣ / ٢٧٩) .

(٣) دلائل النبوة (٢ / ٣٧٣) .

ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم ». قال «فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطؤون بلادهم، فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه» قال: « ثم يرجع الناس إليّ فيشكونهم. فأدعو اللَّه عليهم، فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم ـ أي: تنتن» قال: «فينزل اللَّه المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر. ففيما عهد إلى ربي: أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم، لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها، ليلاً أو نهاراً» وأخرجه ابن ماجه(١) .

وقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «حين أسرى بي لقيت موسى» قال: فنعته فإذا رجل ـ حسبته قال: ـ مضطرب، رَجِل الرأس، كأنه من رجال شنوءة. قال: «ولقيت عيسى» ـ فنعته النبي ﷺ قال : «ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس» يعني حمام. قال: «ولقيت إبراهيم، وأنا أشبه ولده به». قال:« وأتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر، قيل لي: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن، فشربت، فقيل لي: هديت الفطرة ـ أو: أصبت الفطرة ـ أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك»(٢) . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللَّه ﷺ : «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي ،فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه اللَّه لي أنظر إليه، ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلي، وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى قائم يصلي أقرب الناس شبهاً به عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي أقرب الناس شبها به صاحبكم - يعني نفسه - فحانت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت قال قائل: يا محمد، هذا مالك خازن جهنم ، فالتفت إليه فبدأني بالسلام »(٣) .

رواية عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها:

روى البيهقي عن عائشة، قالت: لما أسرى برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك في صاحبك ؟ يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس! فقال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح ؟ قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غَدْوة أو رَوْحة . فلذلك سمي أبو بكر: الصديق(٤) .

فصل : وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث ، صحيحها وحسنها ، فحصل مضمون ما

---

(١) المسند (٣٥٥٦) وابن ماجه (٤٠٨١)، وفي الزوائد : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .

قلت : وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر ، ثم قال : « والحديث ذكره ابن كثير في التفسير (٥ / ١٣٠) عند هذا الموضع ، ووقع في التفسير بدل « موثر بن عفازة » « مرثد بن جنادة » ، وهو تحريف عجيب من الناسخين ، وليس في الرواة المترجمين من يسمى بهذا » .

(٢) البخاري (٣٣٩٤) ومسلم (١٦٨ / ٢٧٢) . (٣) مسلم (١٧٢ / ٢٧٨) .

(٤) دلائل النبوة (٢ / ٣٦٠) ورواه الحاكم في المستدرك (٣ / ٦٢) وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبي .

اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة ، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء، عليهم السلام . ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب ، وهرب إلى غير مهرب ولم يتحصل على مطلب .وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه، عليه السلام ،أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء. وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات. وهذا بعيد جداً، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ به أمته، ولنقله الناس على التعدد والتكرر .قال الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة.وكذا قال عروة. وقال السدي: بستة عشر شهراً.

والحق: أنه، عليه السلام ،أسرى به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس، راكباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب، ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين. ثم أتى المعراج ـ وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها ـ فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم عليه الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرّ بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتيهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى، وغشيها من أمر الله، تعالى، عظمة عظيمة، من فراش من ذهب، وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هنالك جبريل على صورته، وله ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه؛ لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة . ورأى الجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس؛ رحمة منه ولطفاً بعباده. وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها . ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ. ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء. والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه . والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مرّ بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته مايشاء الله، تعالى. ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع هو وإخوانه من النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك.ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس،والله سبحانه وتعالى أعلم. وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل، أو اللبن والخمر ، أو اللبن والماء، أو الجميع ـ فقد ورد أنه في بيت المقدس، وجاء أنه في السماء . ويحتمل أن يكون ههنا وههنا؛ لأنه كالضيافة للقادم، والله أعلم. ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه؟ أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثرون من العلماء على أنه أسرى ببدنه وروحه يقظة لا مناماً،ولا ينكر أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً، ثم رآه بعده يقظة؛ لأنه عليه السلام كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح؛

والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتد جماعة ممن كان قد أسلم. وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ وقد قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، والبصر من آلات الذات لا الروح. وأيضاً فإنه حمل على البراق، وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه، والله أعلم.

وقال آخرون: بل أسرى برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده. وقد تعقبه ابن جرير في تفسيره بالرد والإنكار والتشنيع، بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن، والله أعلم.

فائدة: قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دَحْيَة في كتابه «التنوير في مولد السراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلم عليه فأجاد وأفاد، ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب، وعلي، وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الرحمن بن قُرْط، وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وبريدة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسمرة بن جُنْدُب، وأبي الحمراء، وصهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم أجمعين. منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة الملحدون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ﷺ عطف بذكر موسى عبده وكليمه أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام وبين ذكر التوراة والقرآن؛ ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب ﴿هُدًى﴾ أي هادياً ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ أي لئلا تتخذوا ﴿مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ أي ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح. فيه تهييج وتنبيه على المنة، أي: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة، تشبهوا بأبيكم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمداً ﷺ. وقد ورد في الحديث وفي الأثر عن السلف: أن نوحاً، عليه السلام، كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله؛ فلهذا سمي عبداً شكوراً. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها». وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي[(١)]. وقال مالك، عن زيد بن

---

(١) المسند (٣/ ١١٧) ومسلم (٢٧٣٤/ ٨٩) والترمذي (١٨١٦) والنسائي في الكبرى (٦٨٩٩).

أسلم: كان يحمد الله على كل حال. وقد روى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « أنا سيد الناس يوم القيامة » بطوله، وفيه: « فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا إلى ربك » وذكر الحديث بكماله(١).

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝ ﴾

يخبر تعالى أنه قضى إلى بنى إسرائيل فى الكتاب، أى: تقدم إليهم وأخبرهم فى الكتاب الذى أنزله عليهم أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ويعلون علواً كبيراً، أى: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس كقوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر:٦٦] أى: تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به. وقوله: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ﴾ أى: أولى الإفسادتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أى: سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولى بأس شديد، أى: قوة وعدة وسلطنة شديدة ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ أى: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أى: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ .

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف فى هؤلاء المسلطين عليهم: من هم ؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجزَرىّ وجنوده، سلط عليهم أولاً، ثم أديلوا عليه بعد ذلك. وقتل داود جالوت؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية .وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده. وعنه أيضاً، وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل .وقد أخبر الله عنهم أنهم لما بغوا وطغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بَيْضَتَهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء .وقد روى ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال : ظهر بختنصر على الشام ، فخرب بيت المقدس وقتلهم ، ثم أتى دمشق فقتل سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم (٢). وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم، حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه منهم خلقاً كثيرا أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها. ولو وجدنا ماهو صحيح أو ما يقاربه، لجاز كتابته وروايته، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أى : فعليها،كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت:٤٦].

---

(١) البخارى (٤٧١٢) .

(٢) ابن جرير فى التفسير (١٥ / ٢٣) .

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ أى: الكرّة الآخرة، أى: إذا أفسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أى: يهينوكم ويقهروكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ أى بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: فى التى جاسوا فيها خلال الديار ﴿وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أى: يدمروا ويخربوا ﴿مَا عَلَوْا﴾ أى: ما ظهروا عليه ﴿تَتْبِيرًا. عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أى: فيصرفهم عنكم ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أى: متى عدتم إلى الإفساد ﴿عُدْنَا﴾ إلى الإدالة عليكم فى الدنيا مع ماندخره لكم فى الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أى: مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه. وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل، فسلط الله عليهم هذا الحى، محمداً ﷺ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾

يمدح تعالى كتابه العزيز الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدى لأقوم الطرق، وأوضح السبل ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ على مقتضاه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أى: يوم القيامة ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أى: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ۝﴾

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان، ودعائه فى بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله ﴿بِالشَّرِّ﴾ أى: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ الآية [يونس: ١١]، وكذا فسره ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وإنما يحمل ابن آدم على ذلك عجلته وقلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ۝﴾

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا فى الليل وينتشروا فى النهار للمعايش والصنائع والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضى الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: فى معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شىء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ. وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٣]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢]، وقال

تعالى: ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقال: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ(١) اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس:٣٧، ٣٨].

ثم إنه تعالى جعل لليل آية، أي: علامة يعرف بها وهي الظلام وظهور القمر فيه ، وللنهار علامة، وهي النور وطلوع الشمس النيرة فيه، وفاوت بين نور القمر وضياء الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ الآية [البقرة:١٨٩] . قال عبد اللّه بن كثير في قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ قال: ظلمة الليل وسُدفة النهار . وقال مجاهد :الشمس آية النهار، والقمر آية الليل ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ قال: السواد الذي في القمر ،وكذلك خلقه اللّه تعالى. وقال ابن عباس: كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾: السواد الذي في القمر. وقد روى ابن جرير من طرق متعددة جيدة: أن ابن الكوَّاء سأل علي بن أبي طالب فقال: يا أمير المؤمنين، ما هذه اللطخة التي في القمر ؟ فقال: ويحك. أما تقرأ القرآن؟ ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ فهذه محوه . وقال قتادة في قوله : ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾: كنا نحدث أن محو آية الليل سواد القمر الذي فيه، ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، أي: منيرة، وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم. وقال ابن عباس : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما اللّه، عز وجل .

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝﴾

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وطائره: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: من خير وشر، ويُلزم به ويجازي عليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة : ٥، ٦]، وقال تعالى : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٧، ١٨]، وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٦]، وقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه،قليله وكثيره،ويكتب عليه ليلاً ونهاراً ، صباحاً ومساء.

وقوله : ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أي: نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة،إما بيمينه إن كان سعيداً،أو بشماله إن كان شقياً ﴿مَنشُورًا﴾أي: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ .وَلَوْ أَلْقَى

---

(١) وهكذا قرأها الحافظ ابن كثير ، كما في المخطوطة ، وهي قراءة يعقوب وأهل المدينة وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وحمزة والكسائي : « جَعَلَ » وفي المطبوعة : « جعل » وهو تحريف .

معاذيره﴾ [القيامة: ١٣ ـ ١٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾أى: إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمى.

وقوله : ﴿ ألزمناه طائره في عنقه﴾ إنما ذكر العنق؛ لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له فى الجسد، ومن ألزم بشىء فيه فلا محيد له عنه .وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر عن النبى ﷺ قال : « ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه ، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: ياربنا، عبدك فلان، قد حبسته؟ فيقول الرب جل جلاله: اختموا له على مثل عمله، حتى يبرأ أو يموت». إسناده جيد قوى ، ولم يخرجوه(١) . وعن قتادة :﴿ ألزمناه طائره في عنقه﴾ قال: عمله﴿ونخرج له يوم القيامة ﴾ قال: نخرج ذلك العمل ﴿كتابا يلقاه منشورا﴾ قال معمر: وتلا الحسن البصرى ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ [ق:١٧] يا بن آدم، بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿ اقرأ كتابك ﴾ الآية ، فقد عدل ـ والله ـ من جعلك حسيب نفسك. هذا من أحسن كلام الحسن، رحمه الله .

﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) ﴾

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى آثار النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه﴿ومن ضل﴾أى: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجنى على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه. ثم قال: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أى: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجنى جان إلا على نفسه ، كما قال تعالى :﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء﴾ [فاطر:١٨].

ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ [العنكبوت :١٣] ، وقوله : ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ [النحل: ٢٥]، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالهم فى أنفسهم ، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئاً . وهذا من عدل الله ورحمته بعباده .

وكذا قوله تعالى :﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كقوله تعالى: ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾ [الملك:٨، ٩]، وكذا قوله: ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما

(١) المسند (٤ / ١٤٦) .

لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه .

ومن ثم طعن جماعة من العلماء فى اللفظة التى جاءت مقحمة فى صحيح البخارى عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦] عن أبى هريرة،عن النبى ﷺ قال: « اختصمت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال: «وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحداً، وأنه ينشئ للنارخلقاً فيلقون فيها، فتقول: هل من مزيد؟» ثلاثا ، وذكر تمام الحديث [(١)]. فهذا إنما جاء فى الجنة لأنها دار فضل ، وأما النار فإنها دار عدل، لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه. وقد تكلم جماعة من الحفاظ فى هذه اللفظة وقالوا: لعله انقلب على الراوى بدليل ما أخرجاه فى الصحيحين واللفظ للبخارى عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ :« تحاجت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال: «فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع فيها قدمه، فتقول: قط ،قط، فهنالك تمتلئ وينزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً » [(٢)].

بقى ههنا مسألة قد اختلف الأئمة ،رحمهم الله تعالى، فيها قديماً وحديثاً وهى: الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار، ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات فى الفَتْرة ولم تبلغه الدعوة. وقد ورد فى شأنهم أحاديث ، فروى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع ، أن نبى الله ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة:رجل أصم لا يسمع شيئاً ،ورجل أحمق ، ورجل هَرَم، ورجل مات فى فترة ، فأما الأصم فيقول: رب، قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً ، وأما الأحمق فيقول: رب، لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونى بالبعر ، وأما الهَرَمُ فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذى مات فى الفترة فيقول: رب، ما أتانى لك رسول . فيأخذ مواثيقهم لَيُطِيعُنَّه فيرسل إليهم أن ادخلوا النار ، فوالذى نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً »[(٣)].

وفى الصحيحين، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: « كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ »،وفى رواية : قالوا: يا رسول الله،أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[(٤)]. وفى صحيح مسلم، عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ ، عن الله، عز وجل، أنه قال: «إنى خلقت عبادى حنفاء» [(٥)].

وروى الإمام أحمد ، عن حسناء[(٦)] بنت معاوية من بنى صريم قالت: حدثنى عمى قال: قلت: يارسول الله، من فى الجنة ؟ قال :«النبى فى الجنة ،والشهيد فى الجنة ،والمولود فى الجنة،والوئيد فى الجنة »[(٧)].

فمن العلماء من ذهب إلى التوقف الوقوف فيهم لهذا الحديث، ومنهم من جزم لهم بالجنة، لحديث

---

(١) البخارى (٧٤٤٩) . (٢) البخارى (٤٨٥٠) ومسلم (٢٨٤٦ / ٣٥) .
(٣) المسند (٤ / ٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧ / ٢١٨) : « رجاله رجال الصحيح » .
(٤) البخارى (١٣٨٥) ومسلم (٢٦٥٨ / ٢٢) . (٥) مسلم (٢٨٦٥ / ٦٣) .
(٦) فى المطبوعة والمخطوطة : « خنساء » والمثبت من المسند .
(٧) المسند (٥ / ٤٠٩) ، وقال ابن حجر فى الفتح (٣ / ٢٤٦) : « إسناده حسن » .

سَمُرة بن جندب فى صحيح البخارى: أنه عليه الصلاة والسلام قال فى جملة ذلك المنام، حين مرّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل: هذا إبراهيم، عليه السلام، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين، قالوا: يارسول اللّه، وأولاد المشركين؟ قال «نعم، وأولاد المشركين»(١). ومنهم من جزم لهم بالنار، لقوله عليه السلام: «هم مع آبائهم»(٢). ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة فى العَرَصَات، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم اللّه فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً، وانكشف علم اللّه فيه بسابق الشقاوة. وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث. وهذا القول هو الذى حكاه الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى، عن أهل السنة والجماعة، وهو الذى نصره الحافظ أبو بكر البيهقى فى «كتاب الاعتقاد» وكذلك غيره من محققى العلماء والحفاظ والنقاد.

فصل: وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضى أبو يعلى بن الفرّاء الحنبلى، عن الإمام أحمد أنه قال: لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة. وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذى نقطع به إن شاء اللّه، عز وجل.

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

اختلف القراء فى قراءة قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ فالمشهور قراءة التخفيف، واختلف المفسرون فى معناها، فقيل: معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قدرياً، كقوله تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]، فإن اللّه لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناه: أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب. وقيل: معناه: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير أيضاً. وقال ابن جرير: وقد يحتمل أن يكون معناه: جعلناهم أمراء.

قلت: إنما يجىء على قراءة من قرأ ﴿أمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ قال ابن عباس قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب، وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وكذا قال مجاهد والربيع بن أنس. وقال ابن عباس: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: أكثرنا عددهم، وكذا قال عكرمة، والحسن، والضحاك، وقتادة، وعن مالك عن الزهرى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: أكثرنا.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالى منذراً كفار قريش فى تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسل من بعد نوح، ودل هذا على أن القرون التى كانت بين آدم ونوح على الإسلام، كما قاله ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. ومعناه: أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على اللّه منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى. وقوله: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أى: هو عالم بجميع أعمالهم، خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية

(١) البخارى (٧٠٤٧).
(٢) مسلم (١٧٤٥ / ٢٦) وأبو داود (٤٧١٢).

سبحانه وتعالى .

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء. وهذه مقيدة لإطلاق ماسواها من الآيات فإنه قال: ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ أى: فى الآخرة ﴿يَصْلاهَا ﴾ أى: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُومًا ﴾ أى: فى حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفانى على الباقى ﴿مَّدْحُورًا ﴾: مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً .روى الإمام أحمد عن عائشة، قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له »[١] .

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ ﴾ أى: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أى: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أى: مصدق بالثواب والجزاء ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ .

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ كُلاًّ ﴾ أى كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نمدهم فيما هم فيه ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أى: هو المتصرف الحاكم الذى لا يجور، فيعطى كلاً ما يستحقه من الشقاوة والسعادة فلا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد؛ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أى :لا يمنعه أحد ولا يرده راد. قال قتادة: ﴿ مَحْظُورًا﴾ أى:منقوصا. وقال الحسن وغيره: ممنوعاً.

ثم قال تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أى : فى الدنيا، فمنهم الغنى والفقير وبين ذلك ، والحسن والقبيح وبين ذلك ، ومن يموت صغيراً ، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً ، وبين ذلك ﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ أى: ولتفاوتهم فى الدار الآخرة أكبر من الدنيا؛ فإن منهم من يكون فى الدركات فى جهنم وسلاسلها وأغلالها ، ومنهم من يكون فى الدرجات العُلَى ونعيمها وسرورها ، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . وفى الصحيحين: « إن أهل الدرجات العلا ليرون أهل عليين، كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء»[٢] ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ .

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾

يقول تعالى ـ والمراد المكلفون من الأمة: لا تجعل أيها المكلف فى عبادتك ربك له شريكاً ﴿فَتَقْعُدَ

(١) المسند (٦ / ٧١) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٢٩١) : « رجاله رجال الصحيح غير دويد وهو ثقة » .
(٢) تقدم تخريجه عند الآية (٦٩) من سورة النساء .

مذمومًا﴾ على إشراكك به ﴿مَخْذُولاً﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكلك إلى الذى عبدت معه، وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعا؛ لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لاشريك له. وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى، إما آجلاً وإما عاجلا ». ورواه أبو داود، والترمذى، وقال : حسن صحيح غريب (١).

ربع ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا (٢٤) ﴾

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لاشريك له؛ فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر. قال مجاهد : ﴿وَقَضَىٰ﴾ يعنى : وصى، ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أى: وأمر بالوالدين إحساناً ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]. وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ أى: لا تسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذى هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ أى: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء فى قوله: ﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ أى: لا تنفض يدك عليهما.

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ أى: ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أى: تواضع لهما بفعلك ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أى: فى كبرهما وعند وفاتهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾. قال ابن عباس : ثم أنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]. وقد جاء فى بر الوالدين أحاديث كثيرة، منها ما رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «رغم أنف، ثم رغم أنف ، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه أحدهما أو كلاهما عند الكبر ولم يدخل الجنة». ورواه مسلم (٢).

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا (٢٥) ﴾

قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه، وفى نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به ـ وفى رواية : لا يريد إلا الخير بذلك ـ فقال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾. وقوله : ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة. وعن ابن عباس: المسبحين. وفى رواية عنه: المطيعين المحسنين. وقال بعضهم: هم الذين يصلون بين العشاءين. وقال بعضهم: هم الذين يصلون الضحى.

وقال سعيد بن المسيب فى قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ قال: الذين يصيبون الذنب ثم الذنب ثم يتوبون، ويصيبون الذنب ثم يتوبون. وكذا رواه ابن جرير عن ابن المسيب، به. وقال عطاء بن يسار وسعيد بن جبير ومجاهد : هم الراجعون إلى الخير. وقال مجاهد عن عبيد بن عمير فى الآية: هو

---
(١) المسند (٣٨٦٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » وأبو داود (١٦٤٥) والترمذى (٢٣٢٦) .
(٢) المسند (٢ / ٣٦٤) ومسلم (٢٥٥١ / ٩) .

الذى إذا ذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر الله منها. ووافقه مجاهد فى ذلك. وقال عبد الرزاق عن عبيد ابن عمير، فى قوله: ﴿فإنه كان للأوابين غفورا﴾ قال: كنا نعد الأواب الحفيظ، أن يقول: اللهم اغفر لى ما أصبت فى مجلسى هذا.

قال ابن جرير: والأولى فى ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الراجع عن المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه. وهذا الذى قاله هو الصواب؛ لأن الأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال تعالى: ﴿إن إلينا إيابهم﴾ [الغاشية: ٢٥]، وفى الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: «آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون»[(١)].

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام. وفى الحديث: «من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أجله، فليصل رحمه»[(٢)].

وقد تقدم الكلام على المساكين وابن السبيل فى «سورة براءة» بما أغنى عن إعادته ههنا.

قوله: ﴿ولا تبذر تبذيرا﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾ [الفرقان: ٦٧].

ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ أى: أشباههم فى ذلك. وقال ابن مسعود: التبذير: الإنفاق فى غير حق، وكذا قال ابن عباس. وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق، لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً فى غير حقه كان مبذرا. وقال قتادة: التبذير: النفقة فى معصية الله تعالى، وفى غير الحق والفساد. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أنه قال: أتى رجل من بنى تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، إنى ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرنى كيف أنفق وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين». فقال: يارسول الله، أقلل لى؟ فقال: ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا﴾. فقال: حسبى يارسول الله، إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، إذا أديتها إلى رسولى فقد برئت منها، ولك أجرها، وإثمها على من بدلها»[(٣)].

وقوله: ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ أى: فى التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته؛ ولهذا قال: ﴿وكان الشيطان لربه كفورا﴾ أى: جحوداً؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته؛ بل أقبل على معصيته ومخالفته. وقوله: ﴿وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا﴾ أى: إذا سألك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شىء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فقل لهم قولا

(١) البخارى (١٧٩٧). (٢) البخارى (٥٩٨٦) ومسلم (٢٥٥٧ / ٢١).
(٣) المسند (٣ / ١٣٦)، وقال الهيثمى فى الزوائد (٣ / ٦٦): «رجاله رجال الصحيح».

مَّيْسُورًا ﴾ أى: عدهم وعداً بسهولة ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۞ ﴾

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد فى العيش ذامّا للبخل ناهياً عن السَّرَف: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ أى: لا تكن بخيلاً منوعاً، لا تعطى احداً شيئاً، كما قالت اليهود عليهم لعائن الله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة:٦٤] أى نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب.

وقوله: ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ أى: ولا تسرف فى الإنفاق فتعطى فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملوماً محسوراً. ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو كالدابة التى قد عجزت عن المسير ، فوقفت ضعفاً وعجزا ، فإنها تسمى الحسير ، وهو ماخوذ من الكلال ، كما قال: ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك:٣، ٤] أى: كليل عن أن يرى عيباً. هكذا فسر هذه الآية ـ بأن المراد هنا البخل والسرف ـ ابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم. وقد جاء فى الصحيحين، عن أبى هريرة؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنفق، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما. فأما المنفق فلا ينفق إلا سبَغَت ـ أو: وفرت ـ على جلده، حتى تُخفى بنانه وتعفو أثره. وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة منها مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع»[(١)] . وفى الصحيحين عن أسماء بنت أبى بكر ، قالت: قال رسول الله ﷺ : «أنفقى هكذا وهكذا وهكذا، ولا تُوعِى فَيُوعِى الله عليك، ولا توكى فيوكى الله عليك » وفى لفظ: «ولا تُحصى فيحصى الله عليك»[(٢)] . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ : « إن الله قال لى :أنفق أنفق عليك »[(٣)] . وفى الصحيحين عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما :اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر :اللهم أعط ممسكاً تلفاً »[(٤)] .

وقوله :﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف فى خلقه بما يشاء،فيغنى من يشاء، ويفقر من يشاء، بما له فى ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أى: خبير بصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر ،وقد يكون الغنى فى حق بعض الناس استدراجاً ، والفقر عقوبة ، عياذاً بالله من هذا وهذا .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ۞ ﴾

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه نهى عن قتل الأولاد، كما أوصى الآباء بالأولاد فى الميراث، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته، فنهى الله تعالى عن ذلك وقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ أى: خوف

(١) البخارى (١٤٤٣) ومسلم (١٠٢١ / ٧٦) .
(٢) البخارى (١٤٣٣) ومسلم (١٠٢٩ / ٨٨) .
(٣) مسلم (٩٩٣ / ٣٧) .
(٤) البخارى (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠ / ٥٧) .

أن تفتقروا فى ثانى الحال؛ ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ . وفى الانعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ﴾ أى: من فقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الانعام: ١٥١].

وقوله: ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أى: ذنباً عظيماً. وقرأ بعضهم: «كان خطَأً كبيراً» وهو بمعناه. وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود: قلت: يارسول الله، أى الذنب أعظم ؟ قال: « أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أى ؟ قال:«أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَمَ معك». قلت: ثم أى ؟ قال:« أن تزانى بحليلة جارك»[1] .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۝ ﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربته، وهو مخالطة أسبابه ودواعيه : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ أى: ذنباً عظيماً ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أى: وبئس طريقاً ومسلكاً .

وقد روى الإمام أحمد عن أبى أمامة قال: إن فتى شاباً أتى النبيﷺ فقال : يا رسول الله، ائذن لى بالزنا . فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا : مَهْ مَهْ. فقال: «ادنه». فدنا منه قريبا ،فقال:« اجلس». فجلس، قال: «أتحبه لامك؟» قال: لا والله، جعلنى الله فداك. قال:«ولا الناس يحبونه لامهاتهم». قال:«أفتحبه لابنتك؟». قال: لا والله يارسول الله، جعلنى الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، قال: «أتحبه لأختك؟» قال: لا والله، جعلنى الله فداك. قال:«ولا الناس يحبونه لاخواتهم»، قال : «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله،جعلنى الله فداك. قال:«ولا الناس يحبونه لعماتهم» قال:«أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله، جعلنى الله فداك. قال:«ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وأحصن فرجه». قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء[2] .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ۝ ﴾

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعى، كما ثبت فى الصحيحين؛ أن رسول اللهﷺ قال: « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس، والزانى المحصن ،والتارك لدينه المفارق للجماعة »[3] . وفى السنن: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم»[4] .

وقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا ﴾ أى: سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قَوَدًا ، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً ، كما ثبتت السنة بذلك. وقول تعالى : ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ﴾ قالوا: معناه: فلا يسرف الولى فى قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير

(١) البخارى (٤٤٧٧) ومسلم (٨٦ / ١٤١) .

(٢) المسند (٥ / ٢٥٧) ، ورواه الطبرانى فى الكبير (٨ / ١٩٠) (٧٦٧٩) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١ / ١٣٢) : «رجاله رجال الصحيح».

(٣) البخارى (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦ / ٢٥) .

(٤) الترمذى (١٣٩٥) ، وقال : « وهذا أصح من حديث ابن عدى » ، والنسائى (٣٩٨٦) ، وصححه الالبانى .

القاتل ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ أى أن الولى منصور على القاتل شرعاً ، وقدراً .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ أى : لا تتصرفوا فى مال اليتيم إلا بالغبطة ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء:٦]، وقد جاء فى صحيح مسلم؛ أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر: « يا أبا ذر، إنى أراك ضعيفاً، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى: لا تأمَّرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم »[1] . وقوله: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ أى: الذى تعاهدون عليه الناس والعقود التى تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ أى: عنه. وقوله : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ أى: من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ﴾ قرئ بضم القاف وكسرها، كالقرطاس وهو الميزان. قال مجاهد: هو العدل بالرومية ﴿ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أى: الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ أى: لكم فى معاشكم ومعادكم؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أى: مآلاً ومنقلباً فى آخرتكم.

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

قال ابن عباس: يقول: لا تقل ، وقال قتادة: لا تقل: رأيت، ولم تر، وسمعت، ولم تسمع، وعلمت، ولم تعلم؛ فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله. ومضمون ماذكروه: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذى هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات:١٢]، وفى الحديث: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذبُ الحديث»[2] .

وقوله: ﴿ كُلُّ أُولَٰئِكَ ﴾ أى: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ أى: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وعما عمل فيها.

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾

يقول تعالى ناهيًا عباده عن التَّجبّر والتبختر فى المشية: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أى: متبختراً متمايلاً مشى الجبَّارين ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ ﴾ أى: لن تقطع الأرض بمشيك، ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ أى: بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده . كما ثبت فى الصحيح: « بينا رجل يمشى فيمن كان قبلكم، وعليه بُرْدَان يتبختر فيهما إذ خُسِف به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »[3] . وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه فى زينته ، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض .

وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ معناه : كل هذا الذى ذكرناه من قوله: ﴿ وَقَضَىٰ

(١) مسلم (١٨٢٦ / ١٧) . (٢) البخارى (٦٠٦٦) ومسلم (٢٥٦٣ / ٢٨) .
(٣) البخارى (٥٧٩٠) ومسلم (٢٠٨٨ / ٥٠) .

ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ إلى ههنا فيه، أى: فقبيحه مكروه عند الله.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى: هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس. ﴿ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما﴾ أى: تلومك نفسك ويلومك الله والخلق. ﴿مدحورا﴾ أى: مبعدا من كل خير. والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ؛ فإنه ﷺ معصوم.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى رادًا على المشركين الكاذبين الزاعمين ـ عليهم لعائن الله ـ أن الملائكة بناتُ الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، ثم ادّعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطؤوا فى كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً، فقال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين﴾ أى: خصصكم بالذكور﴿واتخذ من الملائكة إناثا﴾ أى: اختار لنفسه على زعمكم البنات؟ ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾ أى: فى زعمكم أن لله ولدًا، ثم جعلكم ولده الإناث التى تأنفون أن يكنّ لكم، وربما قتلتموهن بالوأد، فتلك إذا قسمة ضيزَى، وقال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا إدا. تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا. أن دعوا للرحمن ولدا. وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا. إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥]

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا﴾ أى: صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿وما يزيدهم﴾ أى: الظالمين منهم ﴿إلا نفورا﴾ أى: عن الحق، وبعدًا منه.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكا من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما يقولون، وأن معه آلهة تُعْبد لتقرّب إليه وتشفع لديه ـ لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعُونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه. ثم نزه نفسه الكريمة وقدّسها فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون﴾ أى: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون فى زعمهم أن معه آلهة أخرى﴿علوا كبيرا﴾ أى: تعالياً كبيرا، بل هو الله الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له

كفوا أحد.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾

يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أي: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته.

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

كما قال تعالى: ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا ﴾ [مريم: ٩٠ ـ ٩١]

وقوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغاتكم. وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات ،وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري، عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل(١). وقوله :﴿إنه كان حليما غفورا ﴾ أي: أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ الآية [هود: ١٠٢] (٢)، وقال تعالى: ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة﴾ الآية [الحج: ٤٨]. ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه، كما قال تعالى: ﴿ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله﴾ الآية [النساء: ١١٠]. وقال ههنا: ﴿ إنه كان حليما غفورا ﴾ كما قال في آخر فاطر: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا﴾ إلى ان قال: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس ﴾ إلى آخر السورة [فاطر: ٤١ ـ ٤٥].

﴿ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابًا مَّسۡتُورًا (٤٥) وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرًاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورًا (٤٦) ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : وإذا قرأت ـ يامحمد ـ على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجابا مستوراً. قال قتادة، وابن زيد: هو الأكنة على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾ [فصلت: ٥] أي : مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شيء.

وقوله: ﴿حجابا مستورا﴾ أي: بمعنى ساتر، وقيل: مستوراً عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير، رحمه الله. وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: لما نزلت : ﴿تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ [سورة المسد] جاءت العوراء أم

(١) البخاري (٣٥٧٩). (٢) البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣ / ٦١).

جميل ولها ولولة، وفي يدها فهر وهي تقول: مُذَمَّمًا أبينا ـ أو: أبينا ـ ودينه قَلَيْنَا، وأمره عصينا. ورسول الله ﷺ جالس، وأبو بكر إلى جنبه ، فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: «إنها لن تراني»، وقرأ قرآنا اعتصم به منها: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾. قال: فجاءت حتى قامت على أبي بكر، فلم تر النبيَّ ﷺ ، فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجاني. فقال أبو بكر: لاورب هذا البيت ما هجاك. قال: فانصرفت وهي تقول: لقد علمت قريش أني بنت سيدها (١).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾: وهي جمع «كنان»، الذي يغشى القلب ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفهموا القرآن﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به. وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أي : إذا وحَّدت الله في تلاوتك ، وقلت: «لا إله إلا الله» ﴿ وَلَّوْا﴾ أي: أدبروا راجعين ﴿عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ ونفور: جمع نافر، كقعود جمع قاعد، ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفار قريش، حين جاؤوا يستمعون قراءته ﷺ سراً من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور، من السِّحر على المشهور، أو من «السَّحْر»، وهو الرئة، أي: إن تتبعون ـ إن اتبعتم محمداً ـ ﴿إلا بشراً﴾ يأكل ويشرب ، وقد صوب هذا القول ابنُ جرير، وفيه نظر؛ لأنهم إنما أرادوا ههنا أنه مسحور له رئي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه ، ومنهم من قال: «شاعر»، ومنهم من قال: «كاهن»، ومنهم من قال: «مجنون»، ومنهم من قال: «ساحر»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ أي: فلا يهتدون إلى الحق، ولا يجدون إليه مخلصاً.

قال ابن إسحاق: حدثني ابن شهاب الزهري، أنه حُدث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شَرِيق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكلٌ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. حتى إذا جمعتهم الطريق، تلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ،فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد لانعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

(١) أبو يعلى في مسنده (٥٣) وحسنه ابن حجر في الفتح (٧ / ١٦٩) .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته، فقال: أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف مايُراد بها، وسمعتُ أشياء ماعرفتُ معناها، ولا ما يراد بها. قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، مارأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعتُ؟! قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الرُّكب، وكنا كفرَسى رِهان قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لانؤمن به أبدا ولا نصدقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ۝٤٩ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ۝٥١ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٥٢ ﴾ ربع

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿ أئذا كُنَّا عظامًا ورُفاتًا ﴾ أى: ترابًا ،قاله مجاهد،وقال ابن عباس: غبارًا ﴿أئنا لمبعوثون﴾ أى: يوم القيامة ﴿ خلقًا جديدًا﴾ أى: بعد ما بلينا وصرنا عدماً لا نذكر. كما أخبر عنهم فى الموضع الآخر: ﴿ يقولون أئنا لمردودون في الحافرة . أءذا كنا عظامًا نخرة . قالوا تلك إذًا كرةٌ خاسرة ﴾ [النازعات: ١٠ـ١٢]، وقوله تعالى : ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ﴾ الآيتين [يس: ٧٨، ٧٩] .

فأمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن يجيبهم فقال: ﴿قل كونوا حجارةً أو حديدًا﴾ إذ هما أشد امتناعا من العظام والرفات ﴿ أو خلقًا مما يكبر في صدوركم ﴾ قال مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك فقال: هو الموت. وعن ابن عمر أنه قال فى تفسير هذه الآية: لو كنتم موتى لأحييتكم. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو صالح، والحسن، وقتادة، والضحاك. ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتم أنكم لو صِرتُم إلى الموت الذى هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شىء إذا أراده. وقال مجاهد: ﴿ أو خلقًا مما يكبر فى صدوركم﴾ يعنى: السماء والأرض والجبال. وفى رواية: ما شئتم فكونوا، فسيعيدكم الله بعد موتكم.

وقوله: ﴿ فسيقولون من يعيدنا ﴾ أى: من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقًا آخر شديدًا ﴿قل الذي فطركم أول مرة﴾ أى: الذى خلقكم ولم تكونوا شيئًا مذكوراً، ثم صرتم بشرًا تنتشرون؛ فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أى حال ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ الآية [الروم :٢٧] . وقوله تعالى: ﴿فسينغضون إليك رؤوسهم﴾ : قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاء. وقوله: ﴿ويقولون متى هو ﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [الملك: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ [الشورى: ١٨]. وقوله: ﴿ قل عسى أن يكون قريبًا﴾ أى: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم، سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت آت.

وقوله تعالى: ﴿يوم يدعوكم﴾ أى: الرب تعالى ﴿إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ [الروم: ٢٥] أى: إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يُخالَف ولا يُمانَع، بل كما قال تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ [النحل: ٤٠]، وقوله: ﴿فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] أى: إنما هو أمر واحد بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾ أى: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته. قال ابن عباس: ﴿فتستجيبون بحمده﴾ أى: بأمره. وكذا قال ابن جريج. وقال قتادة: بمعرفته وطاعته. وقوله: ﴿وتظنون﴾ أى: يوم تقومون من قبوركم ﴿إن لبثتم﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿إلا قليلا﴾، وكقوله تعالى ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا . يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا . نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما﴾ [طه: ١٠٢ ـ ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون﴾ [الروم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين . قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤].

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣)﴾

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا فى مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنهم إذ لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ فى يده، أى: فربما أصابه بها. وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدرى أحدكم لعل الشيطان أن ينزع فى يده، فيقع فى حفرة من النار». أخرجاه[(١)].

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥)﴾

يقول تعالى: ﴿ربكم أعلم بكم﴾ أيها الناس، أى أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿إن يشأ يرحمكم﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك﴾ يامحمد ﴿عليهم وكيلا﴾ أى: إنما أرسلناك نذيرا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار. وقوله: ﴿وربك أعلم بمن فى السموات والأرض﴾ أى: بمراتبهم فى الطاعة والمعصية ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ وكما قال تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وهذا لا ينافى ما فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تفضلوا بين الأنبياء»[(٢)]؛ فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد

(١) المسند (٢ / ٣١٧) والبخارى (٧٠٧٢) ومسلم (٢٦١٧ / ١٢٦).
(٢) البخارى (٣٤١٤) ومسلم (٢٣٧٣ / ١٥٩).

التشهى والعصبية، لا بمقتضى الدليل، فإذا دل الدليل على شىء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولى العزم منهم أفضل، وهم الخمسة المذكورون نصا فى آيتين من القرآن فى سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب:٧]، وفى الشورى فى قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]. ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى ثم عيسى عليه السلام على المشهور، وقد بسطنا هذا بدلائله فى غير هذا الموضع، والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ تنبيه على فضله وشرفه. روى البخارى عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «خُفف على داود القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فكان يقرأه قبل أن يَفْرغ». يعنى القرآن[١].

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم، فإنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾أى: بالكلية﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أى: أن يحولوه إلى غيركم. والمعنى: أن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذى له الخلق والأمر. قال ابن عباس فى قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ الآية قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا، وهم الذين يدعون، يعنى الملائكة والمسيح وعزيراً.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية. روى البخارى عن عبد الله فى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: ناس من الجن، كانوا يعبدون، فأسلموا. وفى رواية قال: كان ناس من الإنس، يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم[٢]. وقال ابن مسعود فى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: نزلت فى نفر من العرب، كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجِنّيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية. وفى رواية عن ابن مسعود: كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم: الجن، فذكره. وقال مجاهد: عيسى، والعُزير، والملائكة. واختار ابن جرير قول ابن مسعود؛ لقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، وهذا لا يعبر به عن الماضى، فلا يدخل فيه عيسى والعُزير. قال: والوسيلة هى القربة، كما قال قتادة؛ ولهذا قال: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: لاتتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهى، وبالرجاء يكثر من الطاعات. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أى: ينبغى أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، عياذاً بالله منه.

(١) البخارى (٤٧١٣).
(٢) البخارى (٤٧١٤، ٤٧١٥).

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتَّم وقضى بما قد كتبه عنده في اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يبيد أهلها جميعهم او يعذبهم ﴿عذابا شديدا﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضين: ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾ [هود: ١٠١] وقال تعالى: ﴿ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا ﴾ [الطلاق: ٨].

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾

عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحي الجبال عنهم فيزدرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأني بهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكتُ من كان قبلهم من الأمم. قال: «لا، بل استأني بهم». وأنزل الله: ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة﴾. رواه النسائي(١).

ولهذا قال تعالى: ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات ﴾ أي: نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لايؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالى في المائدة: ﴿قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ﴾ [المائدة: ١١٥]. وقال تعالى عن ثمود، حين سألوا آية: ناقة تخرج من صخرة عيَّنوها، فدعا صالح ربه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوا ﴿فظلموا بها ﴾ أي: كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله وعقروا الناقة فقال: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ [هود: ٦٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وآتينا ثمود الناقة﴾ أي: دالة على وحدانية من خلقها وصدق الرسول الذي أجيب دعاؤه فيها ﴿فظلموا بها ﴾ أي: كفروا بها ومنعوها شربها وقتلوها، فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله تعالى: ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾ قال قتادة: إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون. وكذا قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله، عز وجل، يرسلهما يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره». ثم قال: «يا أمة محمد، والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»(٢).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾

(١) المسند (٢٣٣٣) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» والنسائي في الكبرى (١١٢٩٠).
(٢) البخاري (١٠٤٤) ومسلم (٩٠١/ ١).

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهم فى قبضته وتحت قهره وغلبته .قال مجاهد ،والحسن، وقتادة، وغيرهم فى قوله : ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ أى: عصمك منهم.

وقوله : ﴿وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ روى البخارى عن ابن عباس: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ قال: هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ شجرة الزقوم[1]. وقد تقدمت أحاديث الإسراء فى أول السورة ، وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتا ويقينا لآخرين؛ ولهذا قال: ﴿إلا فتنة﴾ أى: اختباراً وامتحاناً. وأما «الشجرة الملعونة»، فهى شجرة الزقوم، كما حكى ذلك ابن عباس.

وقوله : ﴿ونخوفهم﴾ أى: الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿ فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا﴾ أى: تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال .وذلك من خذلان الله لهم .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

يذكر تعالى عداوة إبليس ـ لعنه الله ـ لآدم،وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له؛ افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿ قال أأسجد لمن خلقت طينا ﴾ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ [الأعراف:١٢] .وقال أيضاً: ﴿أرأيتك﴾ يقول للرب جراءة وكفراً، والرب يحلم وينظر ﴿قال أرأيتك هذا الذى كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا﴾ قال ابن عباس : يقول: لأستولين على ذريته إلا قليلاً. وقال مجاهد: لأحتوين. وقال ابن زيد: لأضلنهم. كلها متقاربة، والمعنى : أنه يقول: أرأيتك هذا الذى شرفته وعظمته عليّ، لئن أنظرتنى لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم !

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾

لما سأل إبليس النظرة قال الله له: ﴿اذهب﴾ فقد أنظرتك، كما قال فى الآية الأخرى قال: ﴿فإنك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم﴾[الحجر : ٣٧ ، ٣٨] ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم ﴿قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم﴾ أى: على أعمالكم ﴿جزاء موفورا﴾ قال مجاهد: وافراً. وقال قتادة: موفورا عليكم، لا ينقص لكم منه.

وقوله: ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ قيل: هو الغناء. قال مجاهد: باللهو والغناء، أى: استخفهم بذلك. وقال ابن عباس: كل داع دعا إلى معصية الله، عز وجل،واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿وأجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾ يقول: واحمل عليهم بجنودك خيّالتهم ورجلتهم؛ فإن «الرَّجل»

(١) البخارى (٤٧١٦) .

جمع «راجل»، كما أن «الركب» جمع «راكب» و «صحب» جمع «صاحب». ومعناه: تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه. وهذا أمر قدرى، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣] أى: تزعجهم إلى المعاصى إزعاجاً، وتسوقهم إليها سوقاً. وقال ابن عباس، ومجاهد فى قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قال: كل راكب وماش فى معصية الله. تقول العرب: «أجلب فلان على فلان»: إذا صاح عليه. ومنه اشتقاق «الجلبة»، وهى ارتفاع الأصوات.

وقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال فى معاصى الله. وقال عطاء: هو الربا. وقال الحسن: جمعها من خبيث، وإنفاقها فى حرام. وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس: أما مشاركته إياهم فى أموالهم، فهو ما حرموه من أنعامهم، يعنى: من البحائر والسوائب ونحوها. وكذا قال الضحاك وقتادة. قال ابن جرير: والأولى أن يقال: إن الآية تعم ذلك كله.

وقوله : ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ قال مجاهد، والضحاك: يعنى أولاد الزنا. وقال ابن عباس: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفها بغير علم. وقال قتادة، عن الحسن البصرى: قد والله شاركهم فى الأموال والأولاد مَجَّسُوا وهودوا ونَصَّروا وصبغوا غير صبغة الإسلام، وجَزَّؤوا من أموالهم جزءاً للشياطين. قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: كل مولود ولدته أنثى، عصى الله فيه، بتسميته ما يكرهه الله، أو بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو بقتله أو وأده، أو غير ذلك من الأمور التى يعصى الله بفعله به أو فيه، فقد دخل فى مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه؛ لأن الله لم يخصص بقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى، فكل ما عصى الله فيه أو به، وأطيع فيه الشيطان أو به، فهو مشاركة. وهذا الذى قاله متّجه، وكل من السلف فسر بعض المشاركة، فقد ثبت فى صحيح مسلم، عن عياض بن حمار، أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: إنى خلقت عبادى حُنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرّمت عليهم ما أحللت لهم»[1]. وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقَدّر بينهما ولد فى ذلك، لم يضره الشيطان أبداً»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضى بالحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾: إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين، وحفظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أى: حافظاً ومؤيداً وناصراً.

﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦)﴾

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه فى تسخيره لعباده الفلك فى البحر، وتسهيله لمصالح عباده، لابتغائهم من فضله فى التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ أى: إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم، ورحمته بكم.

---

(١) مسلم (٢٨٦٥ / ٦٣) . (٢) البخارى (١٤١) ومسلم (١٤٣٤ / ١١٦) .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧) ﴾

يخبر تعالى أن الناس إذا مسهم ضرّ، دعوه منيبين إليه، مخلصين له الدين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أى: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى، كما اتفق لعكرمة بن أبى جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هارباً، فركب فى البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لايغنى عنكم إلا أن تدعوا الله وحده. فقال عكرمة فى نفسه: والله لئن كان لا ينفع فى البحر غيره، فإنه لا ينفع فى البر غيره، اللهم لك علىّ عهد، لئن أخرجتنى منه لأذهبن فأضعن يدى فى يد محمد، فلأجدنه رؤوفاً رحيماً. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه، رضى الله عنه وأرضاه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أى: نسيتم ماعرفتم من توحيده فى البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لاشريك له ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ أى: سَجِيَّتُه هذا، ينسى النعم ويجحدها، إلا من عصم الله .

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) ﴾

يقول تعالى: افحسبتم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه! ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وهو: المطر الذى فيه حجارة . قاله مجاهد ، وغير واحد، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ . نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ [القمر: ٣٤، ٣٥] وقد قال فى الآية الأخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (١)﴾ [هود: ٨٢]، وقال: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أى: ناصراً يرد ذلك عنكم ،وينقذكم منه .

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) ﴾

يقول تعالى: ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا فى البحر ، وخرجوا إلى البر ﴿ أَن يُعِيدَكُمْ ﴾ فى البحر مرة ثانية ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ ﴾ أى: يقصف الصوارى ويغرق المراكب. قال ابن عباس وغيره: القاصف: ريح البحار التى تكسر المراكب وتغرقها. وقوله: ﴿ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ أى: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ قال ابن عباس: نصيراً ، وقال مجاهد: نصيراً ثائراً، أى: يأخذ بثأركم بعدكم.

ربع ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) ﴾

(١) فى المطبوعة والمخطوطة : « من طين » وهو خطأ .

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم، وتكريمه إياهم، في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] أي: يمشى قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشى على أربع ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية. ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ أي: على الدواب من الأنعام والخيل والبغال، وفي ﴿الْبَحْرِ﴾ أيضاً على السفن الكبار والصغار ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من زروع وثمار، ولحوم وألبان، من سائر أنواع الطعوم والألوان، المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات.

وقد استدل بهذه الآية على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة: أنه يحاسب كل أمة بإمامهم. وقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أي بنبيهم. وهذا كقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ الآية [يونس: ٤٧]. وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبي ﷺ. وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم، من التشريع. واختاره ابن جرير، وعن مجاهد أنه قال: بكتبهم. فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي: بكتاب أعمالهم، وكذا قال أبو العالية، والحسن، والضحاك. وهذا القول هو الأرجح؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. ويحتمل أن المراد بإمامهم: أي كل قوم بمن يأتمون به، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾. وفي الصحيحين: «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» الحديث[1].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩].

وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته، فإنه لابد أن يكون شاهداً عليها بأعمالها، كما قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ﴾ أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته. كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ

(١) البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢ / ٢٩٩).

اقرؤوا كتابيه﴾ إلى قوله: ﴿وأمّا من أوتي كتابه بشماله﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٥].

وقوله: ﴿ ولا يُظلمون فتيلاً ﴾ قد تقدم أن «الفتيل» هو الخيط المستطيل في شق النواة.

وقوله تعالى: ﴿ومن كان في هذه﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: أي: في الحياة الدنيا ﴿أعمى﴾ عن حجج الله وآياته وبيناته ﴿فهو في الآخرة أعمى﴾ أي: كذلك يكون ﴿وأضل سبيلا﴾ أي: وأضل منه كما كان في الدنيا، عياذاً بالله من ذلك.

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) ﴾

يخبر تعالى عن تأييد رسوله، صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لايكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه، في مشارق الأرض ومغاربها.

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) ﴾

نزلت في كفار قريش، هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً. وكذلك وقع؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم، بعد ما اشتد أذاهم له، إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم، وسبى ذراريهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سنة من قد أرسلنا﴾ الآية ، أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم: بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب. ولولا أنه رسول الرحمة، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ الآية [الأنفال: ٣٣].

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩) ﴾

يقول تبارك تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ عن ابن عباس: « دلوكها »: زوالها . ورواه نافع، عن ابن عمر. ورواه مالك في تفسيره، عن الزهري، عن ابن عمر. وقاله أبو بَرْزَة الأسلمي وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود. ومجاهد. واختاره ابن جرير.

فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلاة الخمسة فمن قوله: ﴿لدلوك الشمس إلى غسق الليل﴾ وهو: ظلامه ، وقيل : غروب الشمس ، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وقوله :

﴿ وقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ يعنى: صلاة الفجر. وقد بينت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله تفاصيل هذه الأوقات، على ما عليه أهل الإسلام اليوم، مما تلقوه خلفاً عن سلف، وقرناً بعد قرن، كما هو مقرر فى مواضعه، ولله الحمد. ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ .روى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر». يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [(١)].

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود، وعن أبى هريرة ،عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ قال: « تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار».ورواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح [(٢)].وفى لفظ فى الصحيحين عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ،ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر، فَيَعْرُجُ الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم ـ وهو أعلم بكم ـ كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»[(٣)].

وقوله تعالى :﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾: أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد فى صحيح مسلم، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ ، أنه سئل: أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: « صلاة الليل»[(٤)] .ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد: ما كان بعد نوم.وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ : أنه كان يتهجد بعد نومه، عن ابن عباس، وعائشة، وغير واحد من الصحابة، رضى الله عنهم، كما هو مبسوط فى موضعه ،ولله الحمد والمنة.واختلف فى معنى قوله تعالى :﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فقيل: معناه : أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فجعلوا قيام الليل واجباً فى حقه دون الأمة.وهو أحد قولى الشافعى، واختاره ابن جرير. وقيل: إنما جعل قيام الليل فى حقه نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر، وغيرُه من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التى عليه، قاله مجاهد.

وقوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ اى: افعل هذا الذى أمرتك به، لنقيمك يوم القيامة مقاماً محمودا يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم، تبارك وتعالى. قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذى يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ماهم فيه من شدة ذلك اليوم.قلت: لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد؛ فهو أول من تنشق عنه الارض، ويبعث راكباً إلى المحشر، وله اللواء الذى آدم فمن دُونَه تحت لوائه، وله الحوض الذى ليس فى الموقف أكثر وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتى لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعد ما يسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول:«لست لها» حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول: « أنا لها،

---

(١) البخارى (٤٧١٧) .

(٢) المسند (٢ / ٤٧٤) والترمذى (٣١٣٥) والنسائى فى الكبرى (١١٢٩٣) وابن ماجه (٦٧٠) .

(٣) البخارى (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢ / ٢١٠) . (٤) مسلم (١١٦٣ / ٢٠٢) .

أنا لها » كما سنذكر ذلك مفصلاً فى هذا الموضع، إن شاء الله تعالى. ومن ذلك أنه يشفع فى أقوام قد أمر بهم إلى النار، فيردون عنها. وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته. وهو أول شفيع فى الجنة، كما ثبت فى صحيح مسلم. وفى حديث الصور: أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته. وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم. ويشفع فى رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم . وهو صاحب الوسيلة التى هى أعلى منزلة فى الجنة ، لا تليق إلا له . وإذا أذن الله تعالى فى الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو فى خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه فى ذلك. وقد بسطت ذلك مستقصى فى آخر كتاب «السيرة» فى باب الخصائص، ولله الحمد والمنة.

ولنذكر الآن الأحاديث الواردة فى المقام المحمود، وبالله المستعان:

روى البخارى عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جثًا ، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع حتى تنتهى الشفاعة إلى محمد ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً (١)

وروى البخارى عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته، حلَّت له شفاعتى يوم القيامة ». انفرد به دون مسلم (٢)

وروى الإمام أحمد عن أنس، عن النبى ﷺ قال: « يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيلهمون ذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فأراحنا من مكاننا هذا. فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كلّ شىء، فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول لهم آدم: لست هناكم، ويذكر ذنبه الذى أصاب، فيستحيى ربه، عز وجل، من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا نوحاً، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. فيأتون نوحاً فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئة سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحيى ربه من ذلك، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن. فيأتونه فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا موسى، عبداً كلمه الله،وأعطاه التوراة. فيأتون موسى فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم النفس التى قتل بغير نفس، فيستحيى ربه من ذلك، ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته وروحه، فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمداً عبداً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتونى». قال الحسن هذا الحرف:« فأقوم فأمشى بين سماطين من المؤمنين» . قال أنس:« حتى أستأذن على ربى، فإذا رأيت ربى وقعت له - أو: خررت - ساجداً لربى، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى». قال:« ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأرفع رأسى، فأحمده بتحميد يُعَلّمُنيه، ثم اشفع فيحدّ لى حداً، فأدخلهم الجنة»: «ثم أعود إليه الثانية ، فإذا رأيت ربى وقعت ـ أو : خررت ـ ساجداً لربى ، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى. ثم يقال : ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يُعَلّمُنيه، ثم أشفع فيحدّ لى حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود فى الثالثة؛ فإذا رأيت ربى وقعت - أو: خررت - ساجداً لربى،

(١)البخارى (٤٧١٨) .
(٢)البخارى (٤٧١٩) .

فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يُعَلِّمُنيه، ثم أشفع فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة. ثم أعود الرابعة فأقول: يارب، ما بقى إلا من حبسه القرآن». فحدثنا أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: «فيخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله» وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله» وكان فى قلبه من الخير ما يزن بُرَّة، ثم يخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله» وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة». أخرجاه(١) .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، قال: أتى رسول الله ﷺ بلحم، فَرُفع إليه الذراع ـ وكانت تعجبه ـ فَنَهَسَ منها نَهْسة، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممّ ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد، يُسْمِعهم الداعى وَيَنفذُهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون. فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون إلى ما أنتم فيه مما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم. فيأتون آدم عليه السلام، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك؛ فاشفع لنا إلى ربك، الا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته، نفسى، نفسى، نفسى! اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً فيقولون: يانوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبدًا شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، الا ترى مانحن فيه؟ الا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لى دعوة دعوتها على قومى، نفسى، نفسى، نفسى! اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم. فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسى، نفسى، نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: ياموسى، أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، الا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنى قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسى، نفسى، نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى. فيأتون عيسى فيقولون: ياعيسى، أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس فى المهد، فاشفع لنا إلى ربك، الا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى محمد ﷺ. فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يامحمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، الا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأقوم فآتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربىّ عز وجل، ثم يفتح الله علىّ، ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلى. فيقال: يامحمد، ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأقول: أمتى

(١) المسند (٣ / ١١٦) والبخارى (٤٤٧٦) ومسلم (١٩٣ / ٣٢٢) .

يارب، أمتى يارب أمتى، يارب، فيقال: يامحمد، أدْخِل من أمتك من لاحساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب». ثم قال: «والذى نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهَجَر، أو كما بين مكة وبُصْرَى». أخرجاه فى الصحيحين (١).

وروى مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر يوم القيامة، وأول شافع، وأول مُشفَّع» (٢).

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ۝ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝ ﴾

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: كان النبى ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿وقل رب أدخلنى مُدخل صدق وأخرجنى مُخرج صدق واجعل لى من لدنك سُلطانا نصيرا ﴾. وقال الترمذى: حسن صحيح (٣).

وقال قتادة: ﴿وقل رب أدخلني مُدخل صدق﴾ يعنى: المدينة ﴿وأخرجني مُخرج صدق ﴾ يعنى: مكة. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول هو أشهر الأقوال. وهو اختيار ابن جرير

وقوله: ﴿واجعل لى من لدنك سُلطانا نصيرا ﴾ قال الحسن البصرى : وعده ربه لينزعن ملك فارس، وعز فارس، وليجعلنه له، وملك الروم، وعز الروم. وقال قتادة فيها : إن نبى الله ﷺ علم ألا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم، على بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم. قال مجاهد: ﴿سُلطانا نصيرا ﴾: حجة بينة . واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة، وهو الأرجح؛ لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ إلى قوله : ﴿ وأنزلنا الحديد﴾ الآية [الحديد: ٢٥]، وفى الحديث: «إن الله لَيَزَع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» أى: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، ما لا يمتنع كثيرٌ من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

وقوله: ﴿ قل جاء الحقُّ وزهق الباطل ﴾ الآية : تهديد ووعيد لكفار قريش؛ فإنه قد جاءهم من الله الحق الذى لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع. وزهق باطلهم، أى: اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ [الأنبياء: ١٨] وروى البخارى عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبى ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصُب، فجعل يطعنها بعود فى يده، ويقول: «﴿ جاء الحقُّ وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾، ﴿ جاء الحقُّ وما يُبدئ الباطل وما يُعيد ﴾ [سبأ : ٤٩]. وكذا رواه البخارى أيضاً فى غير هذا الموضع، ومسلم، والترمذى، والنسائى (٤) .

---

(١) المسند (٢ / ٤٣٥) والبخارى (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤ / ٣٢٧) . (٢) مسلم (٢٢٧٨ / ٣) .

(٣) المسند (١٩٤٨) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» ، والترمذى (٣١٣٩) .

(٤) البخارى (٢٤٧٨ ، ٤٧٢٠ ، ٤٢٨٧) ومسلم (١٧٨١ / ٨٧) والترمذى (٣١٣٨) والنسائى فى الكبرى (١١٢٩٧).

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ ـ وهو القرآن ـ إنه: ﴿ شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ أى: يذهب ما فى القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء فى حقه ورحمة. وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً وتكذيباً وكفراً. والآفة من الكافر لا من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. والآيات فى ذلك كثيرة. قال قتادة فى قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ إنه لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء، ورحمة للمؤمنين .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا (٨٤) ﴾

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصم الله تعالى فى حالتى السراء والضراء فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته ﴿ ونأى بجانبه﴾ قال مجاهد: بَعُد عنا .

قلت : وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ [يونس: ١٢]، وقوله: ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وبأنه ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ وهو المصائب والحوادث والنوائب﴿كَانَ يَؤُوسًا﴾ أى: قنط أن يعود يحصل له بعد ذلك خير ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود : ١٠، ١١].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ قال ابن عباس: على ناحيته. وقال مجاهد: على حدته وطبيعته. وهذه الآية ـ والله أعلم ـ تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى :﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ الآية [هود: ١٢١]؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ أى: منا ومنكم، سيجزى كلَّ عامل بعمله، فإنه لا تخفى عليه خافية .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) ﴾

روى الإمام أحمد عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : كنت أمشى مع النبى ﷺ فى حرث المدينة، وهو متوكئ على عَسِيب، فمر بقوم من اليهود، وقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. وقال بعضهم: لا تسألوه. قال: فسألوه عن الروح، فقالوا :يامحمد، ما الروح ؟ فما زال متوكئاً على

العيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾. فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه. وهكذا رواه البخارى ومسلم (١).

وهذا السياق يقتضى فيما يظهر بادى الرأى: أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا: بأنه قد يكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحى بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهى هذه الآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيراً كثيراً. قال: وأنزل الله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ الآية [الكهف: ١٠٩] (٢). وقد اختلف المفسرون فى المراد بالروح ههنا على أقوال: أحدها: أن المراد: أرواح بنى آدم. وقيل: المراد بالروح ههنا: جبريل. قاله قتادة. وقيل: المراد به ههنا: ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها.

وقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أى: من شأنه، ومما استأثر بعلمه دونكم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أى: وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى. والمعنى: أن علمكم فى علم الله قليل، وهذا الذى تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى؛ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾. ذكر السهيلى الخلاف بين العلماء فى أن الروح هى النفس، أو غيرها، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء، سارية فى الجسد كسريان الماء فى عروق الشجر. وقرّر أن الروح التى ينفخها الملك فى الجنين هى النفس بشرط اتصالها بالبدن، واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهى إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء. قال: كما أن الماء هو حياة الشجر، ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً، فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار ماء مُصْطَاراً أو خمراً، ولا يقال له: «ماء» حينئذ إلا على سبيل المجاز، وهكذا لا يقال للنفس: «روح» إلا على هذا النحو، وكذلك لا يقال للروح: نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه. فحاصل ما نقول: إن الروح هى أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهى هى من وجه لا من كل وجه. وهذا معنى حسن، والله أعلم.

قلت: وقد تكلم الناس فى ماهية الروح وأحكامها وصنفوا فى ذلك كتباً. ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده، فى كتاب سمعناه فى: الروح.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

---

(١) المسند (٣٦٨٨) والبخارى (١٢٥ ، ٧٤٦٢) ومسلم (٢٧٩٤ / ٣٢).

(٢) المسند (٢٣٠٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح ».

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم، فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق، الذى لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له؟!

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ الآية ، أى: بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أى: جحوداً ورداً للصواب.

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

قال ابن جرير عن عكرمة، عن ابن عباس: أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، ورجلاً من بنى عبد الدار، وأبا البَخْترى أخا بنى أسد، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبى أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونُبَيها ومُنَبِّها ابنى الحجاج السَّهْمِيَّين، اجتمعوا، أو: من اجتمع منهم، بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه. فبعثوا إليه: أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك. فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم فى أمره بداء، وكان عليهم حريصاً، يحب رُشْدَهم، ويعز عليه عَنَتُهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يامحمد، إنا قد بعثنا إليك لنُعْذَر فيك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك! لقد شتمت الآباء، وعبتَ الدين، وسفَّهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقى من أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك! فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا، سوّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن: الرئى - فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا فى طلب الطب، حتى نبرئك منه، أو نُعْذَر فيك . فقال رسول الله ﷺ : «ما بى ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن بعثنى الله إليكم رسولاً، وأنزل علىّ كتاباً، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربى، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بينى وبينكم». أو كما قال رسول الله ﷺ تسليماً.

فقالوا: يامحمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به، فليسير

عنا هذه الجبال التى قد ضيّقت علينا، ولْيبسُط لنا بلادنا، ولْيُفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يُبعثَ لنا قُصىّ بن كلاب ، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول، حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك، صدقناك، وعرفنا منزلتك عند اللّه، وأنه بعثك رسولاً كما تقول! فقال لهم رسول اللّه ﷺ : «ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند اللّه بما بعثنى به، فقد بلغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر اللّه، حتى يحكم اللّه بينى وبينكم».

قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فاسأل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جناناً، وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك، إن كنت رسولاً كما تزعم .فقال لهم رسول اللّه ﷺ : « ما أنا بفاعل، ما أنا بالذى يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن اللّه بعثنى بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر اللّه حتى يحكم اللّه بينى وبينكم».

قالوا: فأسقط السماء، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل .

فقال لهم رسول اللّه ﷺ : « ذلك إلى اللّه إن شاء فعل بكم ذلك». فقالوا: يامحمد، أما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ماهو صانع فى ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة، يقال له: الرحمن، وإنا واللّه لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يامحمد، أما واللّه لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهى بنات اللّه. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتى باللّه والملائكة قبيلاً.

فلما قالوا ذلك قام رسول اللّه ﷺ عنهم، وقام معه عبد اللّه بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد اللّه ابن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، ابن عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يا محمد، عرض عليك قومك ماعرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من اللّه، فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فواللّه لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتى معك بنسخة منشورة، معك أربعة من الملائكة، يشهدون أنك كما تقول. وايم اللّه، لو فعلت ذلك لظننت أنى لا أصدقك. ثم انصرف عن رسول اللّه ﷺ ، وانصرف رسول اللّه ﷺ إلى أهله حزيناً أسفاً لما فاته، مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه. وهكذا رواه زياد بن عبد اللّه البَكّائى عن سعيد بن جبير وعكرمة، عن ابن عباس، فذكر مثله سواء.

وهذا المجلس الذى اجتمع هؤلاء له، لو علم اللّه منهم انهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً، فقيل للرسول : إن شئت أعطيناهم ما سألوا فإن كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة» كما تقدم ذلك عند قوله تعالى: ﴿وما منعنا أن نُرسل بالآيات إلا أن كذب بها

الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾[الإسراء:٥٩] وقال تعالى: ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا. تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا . بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا﴾ [الفرقان:٧ ـ ١١].

وقوله تعالى: ﴿حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا﴾ الينبوع: العين الجارية، سألوه أن يجرى لهم عيونا معيناً فى أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك سهل يسير على الله تعالى، لو شاء لفعله ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون .ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس:٩٦، ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا﴾ الآية [الأنعام:١١١].

وقوله تعالى ﴿أو تسقط السماء كما زعمت﴾ أى: أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهى، وتدلى أطرافها، فعجل ذلك فى الدنيا، وأسقطها كسفاً ،أى: قطعاً، كقولهم: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ الآية [الأنفال:٣٢]، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا:﴿أسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين﴾ [الشعراء:١٨٧]. فعاقبهم الرب بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وأما نبيّ الرحمة، ونبيّ التوبة المبعوث رحمة للعالمين، فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً. وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى «عبد الله بن أبى أمية» الذى تبع النبى ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً، وأناب إلى الله عز وجل .

﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: هو الذهب . ﴿أو ترقى في السماء﴾ أى: تصعد فى سلم ونحن ننظر إليك ﴿ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه﴾ قال مجاهد: أى مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة: هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان، تصبح موضوعة عند رأسه. وقوله تعالى:﴿سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾ أى: سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتم إلى الله عز وجل .

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

يقول تعالى :﴿وما منع الناس﴾ أى: أكثرهم ﴿أن يؤمنوا﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى: ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا﴾ [التغابن: ٦] ؟، وقال فرعون وملؤه: ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾ [المؤمنون: ٤٧] ؟، وكذلك قالت الأمم لرسلهم: ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين﴾ [إبراهيم: ١٠]، والآيات فى هذا كثيرة.

ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده: أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ أى: كما أنتم فيها ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ أى: من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشراً، بعثنا فيكم رسلا منكم لطفاً ورحمة.

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) ﴾

يقول تعالى مرشداً نبيه ﷺ إلى الحجة على قومه، فى صدق ما جاءهم به: أنه شاهد علىّ وعليكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنت كاذباً عليه انتقم منى أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ. لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]. وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أى: عليم بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة؛ ولهذا قال:

﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه فى خلقه، ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له، بأنه من يهده فلا مضلّ له ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ﴾ أى: يهدونهم، كما قال: ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧].

وقوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قيل: يارسول اللّه، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال: «الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم». وأخرجاه فى الصحيحين[1]. وقوله: ﴿ عُمْيًا ﴾ أى: لا يبصرون ﴿ وَبُكْمًا ﴾ يعنى: لا ينطقون ﴿ وَصُمًّا ﴾ أى: لا يسمعون. وهذا يكون فى حال دون حال جزاء لهم كما كانوا فى الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق فجوزوا فى محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه ﴿ مَّأْوَاهُمْ ﴾ أى: منقلبهم ومصيرهم ﴿ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ قال ابن عباس: سكنت. وقال مجاهد: طفئت ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ أى: لهباً ووهجاً وجمراً، كما قال: ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ [النبأ: ٣٠].

﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) ﴾ ربع

يقول تعالى: هذا الذى جازيناهم به، من البعث على العمى والبكم والصمم، جزاؤهم الذى

(١) المسند (٣ / ١٦٧) والبخارى (٤٧٦٠) ومسلم (٢٨٠٦ / ٥٤).

يستحقونه؛ لأنهم كذبوا ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أى: بأدلتنا وحججنا، واستبعدوا وقوع البعث ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ أى: بالية نخرة ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أى: بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك، والتفرق والذهاب فى الأرض نعاد مرة ثانية؟. فاحتج تعالى عليهم، ونبههم على قدرته على ذلك، بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]. وقال: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ الآية [الأحقاف: ٣٣]، وقال: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ إلى آخر السورة [يس: ٨١، ٨٣]. وقال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أى: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بداهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لابد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]. وقوله: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ ﴾ أى: بعد قيام الحجة عليهم ﴿إِلاَّ كُفُورًا ﴾: إلا تمادياً فى باطلهم وضلالهم.

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: قل لهم يامحمد: لو أنكم ـ أيها الناس ـ تملكون التصرف فى خزائن الله، لأمسكتم خشية الإنفاق. أى الفقر، أى: خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا﴾ أى: بخيلاً منوعاً. وقال الله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ٥٣] أى: لو أن لهم نصيباً فى ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وهداه؛ فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢]. ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه، وقد جاء فى الصحيحين: «يد الله ملأى لا يَغيضها نفقة، سَحَّاءُ الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يَغض ما فى يمينه» (١).

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهى الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهى: العصا، واليد، والسنين، والبحر، والطوفان، والجراد،

(١) البخارى (٧٤١٩) ومسلم (٩٩٣ / ١٣٦).

والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات . وهذا القول ظاهر جلي حسن قوى. أى: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، وما نجعت فيهم، فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا، وقالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى ـ وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات: ﴿إني لأظنك يا موسى مسحورا﴾ قيل: بمعنى ساحر. والله تعالى أعلم. فهذه الآيات التسع التى ذكرها هؤلاء الأئمة هى المرادة ههنا، وهى المعنية فى قوله تعالى: ﴿وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف﴾ إلى قوله : ﴿في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين﴾ [النمل: ١٠ ـ ١٢]. فذكر هاتين الآيتين: العصا واليد، وبين الآيات الباقيات فى «سورة الأعراف» وفصلها.

وقد أوتى موسى، عليه السلام، آيات أخر كثيرة، منها ضربه الحجر بالعصا، وخروج الماء منه، ومنها تظليلهم بالغمام، وإنزال المنّ والسلوى، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التى شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً. ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ أى: حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به ﴿وإني لأظنك يا فرعون مثبورا﴾ أى: هالكا، قاله مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس : ملعوناً . وقال أيضاً هو والضحاك : مغلوباً. والهالك يشمل هذا كله.

وقوله: ﴿فأراد أن يستفزهم من الأرض﴾ أى: يخليهم منها ويزيلهم عنها ﴿فأغرقناه ومن معه جميعا . وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض﴾ وفى هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها﴾ الآيتين [الإسراء: ٧٦، ٧٧]؛ ولهذا أورث الله رسوله مكة، فدخلها عنوة على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلمًا وكرمًا، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بنى إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال ههنا: ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا﴾ اى : جميعا ، أى: جميعكم أنتم وعدوكم.

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (١٠٦) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه بالحق نزل، أى: متضمنًا للحق، كما قال تعالى: ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه ﴾ [النساء: ١٦٦] أى: متضمنا علم الله الذى أراد أن يُطلعكم عليه، من أحكامه وأمره ونهيه.

وقوله: ﴿وبالحق نزل﴾ أى: ونزل إليك ـ يامحمد ـ محفوظاً محروساً، لم يُشَب بغيره، ولا زيد فيه ولا نُقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القُوى، الأمين المكين المطاع فى الملأ الأعلى. وقوله: ﴿ وما أرسلناك ﴾ أى: يا محمد ﴿ إلا مبشرا ﴾ لمن أطاعك من المؤمنين ﴿ونذيرا﴾ لمن عصاك

من الكافرين. وقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ معناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفرقًا منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ فى ثلاث وعشرين سنة. قاله ابن عباس. ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ أى: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أى: مَهَل ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ أى: شيئًا بعد شىء.

﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ سجدة

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يامحمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ أى: سواء آمنتم به أم لا، هو حق فى نفسه، أنزله الله ونوه بذكره فى سالف الأزمان فى كتبه المنزلة على رسله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ أى: من صالحى أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ويقيمونه، ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذَقَن، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾ أى: لله، عز وجل، شكراً على ما انعم به عليهم، من جعله إياهم أهلاً، أن أدركوا هذا الرسول الذى أنزل عليه الكتاب ؛ ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أى: تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذى وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ ؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

وقوله: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ أى: خضوعاً لله عز وجل وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله، ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ أى: إيماناً وتسليماً كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمن لله، عز وجل، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أى: لا فرق بين دعائكم له باسم «الله» أو باسم «الرحمن»، فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ إلى أن قال: ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآية [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤]

وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ الآية ،روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية وهو متوار بمكة ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله، ومن جاء به. قال: فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ أى: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾. أخرجاه فى الصحيحين[1] . وهكذا قال

(١) المسند (١٥٥) والبخارى (٢٧٢٢) ومسلم (٤٤٦ / ١٤٥) .

عكرمة، والحسن البصري، وقتادة: نزلت هذه الآية في القراءة في الصلاة.

وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾: لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى، نَزَّه نفسه عن النقائص فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ،ولم يكن له كفواً أحد﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ أي: ليس بذليل فيحتاج أن يكون له ولي أو وزير أو مشير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومدبرها ومقدرها بمشيئته وحده، لا شريك له. قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾: لم يحالف أحدا ولم يبتغ نصر أحد. ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي: عظِّمه وأجلَّه عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

قلت : وقد جاء في بعض الآثار : أنها ما قرئت في بيت في ليلة فيصيبه سرق أو آفة . والله أعلم.